

٥٨ شارع ٢٦ يوليو

مجموعـــة قصصية

السفر

تأليف

السيد نجم

الناشر دار الفكر ٥٨ ش ٢٦ يوليو ت : ٧٧٢٨٢١

إهـــداء

— إلى كل دمعة ذرفت . . شفقة وتأمل .

— إلى كل حبة عرق نضحت . . من أجل لقمه شريفة .

— إلى كل رعشة حب . . حقيقية وصادقة .

— إلى كل من حاول أن يقتل لحظة خوف .

تقـــديم

. . . الميلاد الحقيقى لكاتب القصة القصيرة هو يوم أن يجمع أعماله فى كتاب ، وبالرغم من كل الرهبة التى تمتصرنى قررت أن أمارس هذه التجربة ، ومع كل المشقة المتوقعة مادياً ومعنوياً آثرت المحاولة .

. . . كم هى لحظات رائعة مجللة بالصدق ، تلك التى حاولت فيها اقتحام ذلك العالم . . لحظة أن أمسك بالقلم مستلهماً وواجياً أن أخطو خطوة ولو قصيرة جداً فيه . . تلك اللحظات التى أحاول فيها أن أكتب قصة قصيرة .

. . . بعض قصص هذه المجموعة ولدت بشكلها وبعضها جاءت قصيرة جداً . . ولم أجد معياراً مقنعاً أرتبها به .

والله المستعان

السفـــر

- ١ -

.. الأشياء من حولها ، لها وجود ملموس ، مصموع ، مطبوع ، مقروء ، مسموع ، منطوق .. وكل همها !

قبل آذان الفجر .. تستيقظ ، تنهض ، تتوضأ ، تعيد ترتيب الأشياء داخل غرفتها الضيقة ذى الباب الخشبى الرقيق ، المتآكل من آثار الرطوبة ، تفتح مصرعى النافذة ، تسعل ، تتمخض ، ترتدى جلباباً آخر ، تعيد ملء القلة .. تنشغل كثيراً بتلميع غطاؤها النحاسى الأصفر .

ثم تجلس إلى الأرض .. مسبحة ، حامدة ، شاكرة ،

موحدة . . إنتظاراً لسماع صوت المؤذن ، لتصلى .

. . فوق الأريكة البلدية ، المتهالكة ، القديمة . . جلست ، أسفل النافذة الصغيرة ذى القضبان الحديدية الصدئة ، الصليبية الشكل ، القليظة . . يكون مجلسها . النافذة بمستوى أفريز الشارع . الآخرون يصعدون درجات السلم كى يدخلوا مساكنهم . . أما هى فلها سلماً آخر ، تهبط عليه خمس درجات السلم كى تنزلق إلى حجرتها الملقاة فى جوف المنزل العتيق .

. . على مهل بدأت طقوس قهوة الصباح ، شربت وقرأت الفنجان ، لم تبتسم كعادتها ، كفته ثانية . . سوف تعيد قراءته ، وضعت ذراعها الأيمن تحت رأسها . . ذهبت فى دعة وهدوء ، إلى نعاس ووسن ، داعبها السكرى ، الأصوات بالخارج تأتيها متلاحقة سريعة ، تعلو وتكثر . . يصعب تمييزها ، غلبه إيقاع وقع أقدام زوجها المتوفى منذ سنين طويلة ! . . إنه هو ، فهى تعرفه .. خياشيمها تحفظ رائحته . . وأذناها ، قدمت الفنجان .. قالت . . . « اقرأ » .

رمى نظرة حائرة كسابق عهده ، حدق النظر ، وأطاله .. أخيراً قال : « ما أنا بقارىء » .

نهرته آمرة . . .

« لقد علمتك رموز النبوءة » .

رفع جلبابه الأبيض حتى ركبتيه ، بدت ساقيه المشمرتين مشققتين ، خشنتين ، بلون العيش المحترق ، إرتاح إلى الأرض متربعاً ، غطى ركبتيه ثانية . . ثم ضحك قائلا . . . « يموت المعلم ولا يتعلم » .

بصوت عال تابعت . . . « ها هو الطريق ، ها هي النقطة ، هناك ابنتنا الوحيدة هنا رجل وامرأة . . أنا وأنت ! ! »

الرجل قهقه بصوت ساخر . . . « ولو ! ! »

بانفعال هزته من كتفه . . . « تدور الأيام وتلف ، وأنت . . أنت ، لا تتغير ولا تتقدم خطوة » .

احتقنت أذنيه ، إنتفضت أوردة جبهته . . إنه لا يبغى إطلاق الضحكة ، ضحكاته تثيرها ، وهو حريصاً على إرضائها .

. . . « هات . . » وخطفت الفنجان » .

صرخ فيها . . . « إحترس . . . إحترس » .

إنتفضت ، نهضت ، إستعاذت بالله ، دعكت عينيها ، نظرت

أمامها ، الفنجان حطاما منثوراً ، في بعض منه . . الطريق ، النقطة ، الرجل والمرأة ، والإبنة هناك ! !

* * *

- ٢ -

. . طرق على الباب ، منتظم ، هين ، متباعد النبرة . . طروب ، بصوتها المشروخ الباهت طمأنت الطارق . .

« حالا ، سوف أفتح . . إنتظر »

إنها تعرف أنه « عباس » موزع البريد ، إلا أنه لم يكف . . دخل عليها بمرحه وهياجه وتهريجه ، لسانه يتكلم وعيناه وذراعاه ورأسه ! ، أخبرها بمقدم الطبيب كما وعدها بالأمس .

بعد زواج ابنتها وهجرتها ، ومنذ أول خطاب منها ، يدخل « عباس » الحجرة ، يفض المظروف .. يقرأ الخطاب ويشرب الشاى ، ينفعل حسب حرارة أشواق كل جملة ، يقرأ لتناقشه في كل كلمة فيه ، بات أكثر من كونه موزعاً للبريد .. يشكو لها همومه وتشكو له ، يقص عليها فعله رئيسه في العمل وتعنته كيف أنه يتعمد تسليمه برقيات التعازى والشكاوى أما التهانى فللآخرين بينه وبينهم مودة !

.. وتهدىء من روعه ..

يخرج من حجرتها راضياً مرضياً ..

صاح عباس . . . « إتفضل يا دكتور » .

.. دخل الطبيب الشاب ، أعاد إحكام نظارته الطبية وهو يرمى نظرة هلامية إلى الأشياء من حوله ، أنهى الكشف سريعاً ، أخرج دفتره ، خط رسوماً مبهمة وخط طلاسم .. ثم قال وهو ما زال واقفاً ، رافضاً الجلوس منذ وصوله . . .

. . . « قبل شراء الدواء ، أترك هذه الغرفة الرطبة المظلمة »

نظرت إليه فاطمة مابين حاجبيها كعادتها .. همست بهدوء ..

. . . « يا طبيب مداوى . . . إن كنت ناوى تقول غناوى . . ده نصيبي وهو بيقى .

وإن كنت ناوى تقول بداوى . . هات اللى عندك وخد اللى عندى » !

ضحك عباس ، الطبيب لم يفهم شيئاً . . خرج وهو يعيد ثانية أحكم نظارته الطبية !! . . ما أن صفق الباب الخشبى ثانية حتى هلل عباس قائلا . .

« حان وقت الجد ، لقد انتهت أخيراً من كل المطلوب » ،

« لن أسافر ! » قالتها بتحد .. شاردة ، زائغة العينين .

« إنها أرسلت إليك بكل المطلوب ، حتى ثمن التذكرة ، غداً في السادسة صباحاً ، سوف أحضر لتوصيلك إلى المطار . . . » ،

لفهما الصمت فترة .. تابع عباس . .

« لا تنس أنها ابنتك الوحيدة ، وأنت وحيدة هنا .. لا زوج ، ولا حتى أقارب » .

إستدارت إلى القلة ، تجرعت منها ببطء ، صوت انزلاق الماء منها يعلو ، مسحت شفتيها بظهر كفها . . أطالت النظر إلى عباس ، أخيراً فاجأته قائلة . .

« هناك . . . توجد قلة ؟ ! »

إنفجر « عباس » ضاحكا ، ظل يضحك حتى لامست رأسه ركبتيه ! !

* * *

- ٣ -

.. لا تدرى من أين نفرت هذه الرغبة ولا من أين واتتها تلك القوة ؟ .. رغبتها في إعادة تنظيف وترتيب أشياءها ،

وقدرتها على تنفيذ ما رغبت .

فتحت صندوق زوجها الخشبي القديم الأسود ، رفعت الشيشة .. ملأتها بالماء ، أشعلت الفحم ، وصمتها أمام الأريكة .. قالت يومها . .

.. « جهزت لك الشيشة يا سي محروس »

عادت وأشعلت البخور ، عبقت المكان بالرائحة .. فبكت طفلتها الرضيع ، همست .. « لماذا البكاء كلما شمت رائحة البخور ، إنها تطرد الجن من الحجرة .

. . . الظاهر إن ابنتك ياسى محروس .. عكس الناس ! ؟ »

الرجل مشغولا فى النارجيلة ، يتأمل الجمرات .. تمتم قائلا ..

.. « متى أشوفها عروسه فى الكوشه ، وأنت فاضية ومشغولة » ! !

. . . جلست فوق الأريكة ، أراحت رأسها فوق ذراع زوجها الممدودة خلف ظهرها ، .. « تعرف ياسى محروس ... »

زام الرجل ، أخرج صوتاً تعرفه ، إنه نشوان . . !

قالت : « أموت قبلك ! ! »

. . . « لا . . . » قالها ممدودة ، واثقة . . خرجت من جوف صدره ، فكانت ناعمة ، هادئة . . « أنا الأول » .

جاءهم صوت صراخ صغيرتهما و الثلاثة ذأعوام ، لقد تعلقت بالنافذة حتى أخرجت رأسها الصغير من بين قضبانها ، كادت تخرج نصف جسدها ، إنحشرت ، لم تقدر على إخراج كل جسدها . . . فبكت .

. . . منذ عشرة أعوام لم تحرص على تركيب الناموسية ، اليوم أسقطتها من فوق أعمدة الشرير الأربعة ، لم تخرجها منذ وفاة الرجل ، بعد أن كانت تحرص على إسدالها صيفاً وشتاء خشية تلصص عيني الصبية ، وقد سألت أمها ذات صباح عن شر ذلك الصوت المنبعث من سرير أبويها . .

.. « البنت كبرت ، وعينها فتحت ، والفكر شاغل دماغها »

ضحك محروس ، بصوت مقضوم خاطبها ..

« دارت الأيام » يارب ما تخيب ظني » . .

.. « بنتك الأولى على فصلها »

« ربك كبير ، يديم عليها عقلها »

. . . السيدة العجوز لا تجيد القراءة ، عندما أخرجت الأوراق المبرومة ، نثرتهم أمامها ، تصفحتهم واحدة بعد أخرى . . . عقد زواجى ، عقد إيجار الحجرة ، شهادة وفاة سى محروس يا قلبى ، شهادات إبنتى الدراسية . . هذه هى الشهادة الكبيرة . . أخذتها من الجامعة يا روحى ، خطابات مرتبة أرسلتهم الإبنة بعد أن هاجرت إلى البلاد البعيدة . . . هذا أول خطاب وهذا آخرهم . . .

ثانية برمتهم ، وضعتهم هذه المرة بجوارها على السرير .

. . . لم يبق إلا الغطاء القماشى المصنوع من مقطوعات الأقمشة المرتقة ، رفعته من فوق ماكينة الخياطة ، نفضت عنه الأتربة ، أعادته ثانية ، نظرت إلى اللاشىء . . ثم قالت بسكينة ورضا . شكراً . . شكراً . !!

* * *

. . وفى تمام السادسة من صباح اليوم التالى ، كسروا الباب الخشبى للحجرة ، وجدوا العجوز فوق سجادة صلاة بالية . . وقد فارقت الحياة !!

﴿ المشهد الأخير ﴾

.. افتتاحية ..

« سوف أحطم لكم نظرية النجم الشاب الوسيم ، سوف أكون أول نجماً من الشيوخ على خشبة المسرح ، أحتاج فرصة فرصة واحدة فقط ، إنها مقولة « عم عبده البطل » !

لا يكل من تكرارها ، ولا يمل تفسيرها .

لا أذن سمعته ، ولا عين رأته ، ولم يخطر على ذهن أحد من ندمائه ورفقاء المقهى أن ما يتفوه به سوف يتحقق ... وحده الواثق فيما يقول ! !

.. الزمان .. ثلاثة أيام هامة من حياة « عم عبده » .

.. المكان .. مقهى على رأس الحارة ، حجرة نوم متواضعة

أهم ما تحتوى مرآة كبيرة بطول الحائط .

. . الشخصيات . . هو والآخرون .

. . المشهد الأول . .

التفوا حوله كعادتهم كل ليلة ، مقعده فى منتصف الحلقة ، يسألونه ويجيب ، ومن غير سؤال يفيض وينز أخبار وحوادث مقابل فنجان القهوة السادة . وفور الانتهاء من عمله بالمسرح يجالسهم ، يسخرون منه . . ربما ، يكذبونه . . أحيانا ، يستفزونه . . يثور عليهم ، إلا أنهم دوماً فى انتظاره ، اليوم لم يصرخ . . لم يتكلم . . ولم يهمس كحاله معهم . .

لاحقوه . . « خيراً يا عم عبده » . . « لا أعقدنا الله صوتك، ولا حرمنا من أخبارك » . . . « ربما قفلوا المسرح » . . . « تكلم يا رجل » . . . « دعوه ، لعله يعتقد أننا نتنفس بكلامه . . . »

الرجل حبيس جعبة الصمت، يشير إلى النادل بتغيير « كرسى » النارجيلة ، يسحب النفس الأول ، يخرجه دخاناً رمادياً كثيفاً ، يدى وكأنه ينثه من كل فتحات رأسه . . أخيراً نطق « يا جماعة أنا قلق ، قلق جداً . . . »

عاد إلى صمته ، رمى زفيرة متشنجة . . تابع ثانية . .

«لقد كلفني الأستاذ المخرج اليوم بدور هام جداً في المسرحية، وصمت . وجال بعينيه « كم سخروا مني وقهقهوا . كم قالوا عني وتقولوا ، كم من العوائق وضعوها على طريقي » .

. . . سألوه « متى يا عم عبده » ؟ !

نهض ، ركل المقعد الخيرزان ، رفع رأسه، مسح عن شفتيه، إتسعت كرتي عينيه ، ولمعت ، تيبست ذراعاه وقد عقدها خلف ظهره .

ثم . . ثم أدار ظهره وذهب .

. . ملاحظة أولى . . الرجل متوسط القامة ، نحيف ، بل هو هزيل القوام ، تعلوه غلالة من لون جلبابه ، ينتعل حذاء متهرئ كالح ، جلبابه مفتوح الصدر . . مائلا قليلا الى الخلف . عيناه عسليتان واسعتان ، حاجباه متصلبتان ، جفونه مرتخية وهو ما يجعله دوماً رافعاً حاجبيه لأعلى . . بما يفرض على سحنته ملامح الاندهاش ! !

. . المشهد الثاني . .

. . في مجلسه المعتاد ، وسط نفس المجموعة ، أمام ذات النارجيلة كان « عم عبده » يصف ويسرد ويقول . . .



« بدأنا بروفات المسرحية ياجماعة ، المخرج تعبنى آخر تعب ، قال لى إسمع يا عم عبده . . أنت تدخل من هنا ، تقف رافعاً سيفك ، تنظر إلى « الأستاذ هانى » بطل المسرحية وهو جالس إلى الأرض بهدوء هناك، تفاجأ بأنه لم يقاومك ، تسقط السيف، ترشقه فى خشبة المسرح .

« هانى » ينظر إليك فى استسلام ولكن بقوة وبعزة ، لأنك تعلم أنه مظلوم والأمر لديك أن تقبض عليه حياً أو ميتاً . . تتقدم إلى هنا وتشير إلى الحراس بالالتفاف حوله .

يقول لك . .

(لقد شاخ العالم . . لقد شاخ بحيث لن تأت أيام أفضل) . .
تتقدم أنت خطوتين ، يتابع هو . .

(إحساسى بالعزلة سجن لا يطاق ، ها أنا لك أقبض على . .

تأمر الحرس بالقبض عليه وهو خارج معكم يميل عليك قائلا . .

(إن العزلة عظيمة يا صديق . . عظيمة لدرجة أنه حتى الصراع غير ممكن) ويسدل الستار وهو معكم .

. . صدقونى يا جماعة ، وأسدل الستار أكثر من ألف مرة بروفة على هذا المشهد ، المخرج تعبنى جداً ، قوى ، خالص . .

والعرض بعد يومين فقط ، يومين ويكون البطل عبده . . وعبده البطل على خشبة المسرح) .

. . واختفى الرجل بين طياب ظلمة الحارة المؤدية إلى منزله .

. . حاشية . .

« عبده » لم ينل قسطاً يذكر من التعليم ، منذ هجرته المبكرة من القرية لم يعمل إلا أعمالا بسيطة بالمسرح ، ومنذ ذلك التاريخ يتوهم نفسه أنه بطل المسرحية التى تعرض . . حتى لقبوه بـ « عبده البطل » .

وسعد هو بهذا اللقب .

. . المشهد قبل الأخير . .

. . داخل غرفة النوم الضيقة . . أمام المرآة الضخمة . . وقف « عبده البطل » إنه يملك مرآة بطول طوله ، إشتراها من إحدى المزادات منذ سنوات بعيدة ، إستدان كى يدفع ثمنها ، إنه موقن بأهميتها أثناء التدريب أمامها . يوم أن اشتراها هال الواقفين إصراره على أخذها بأى ثمن فى المزاد الكبير ، التفوا حوله ، كلهم شفاه مزمومة متسائلة . . عندما نطق أحدهم مندهشاً . . . « ماذا ستفعل بها ؟ ! ! »

قال عم عبده بثقة . . . « سوف أقاتلكم فيها . . »

ضحكوا . . لا أكثر . ومنذ ذلك التاريخ وهو يعيد تمثيل ما رآه على خشبة المسرح . الليلة يعيد بروفات المسرحية الأخيرة .

« سوف أتقدم بقدمى اليمنى هكذا .. السيف أرفعه ، أدخل مرفوع الرأس بحيث يكون وجهى مواجهاً للجمهور هكذا . . . لكن ترى ماذا سأفعل بيدى اليسرى ؟ » عاد وكررها . . للمرة العاشرة يعيدها . . فى المرة الحادية عشر قرر أن يؤدى دور بطل المسرحية .

. . المشهد الأخير . . « الليلة السابقة على الافتتاح »

أمام ذات المرآة تهيأ لأداء دور البطولة ، يخاطب نفسه قائلا . . . « سوف أعيد إخراج المشهد الأخير . . بل سوف أعيد تأليف حواره ، لن أترك الجمهور حائراً فى مثل هذه الجمل الغامضة . . لن أقول شاخ العالم بحيث لن تأت أيام أفضل . . سوف أقول . .

(لقد شاخت عقولكم بحيث لن ترون أيام أفضل) .

. . على أن أنهض فور دخول الحراس ، أضرب الأرض بقدمى ، إصبعى السبابة أقذفه فى وجوههم ، يجب أن تخرج

الكلمات ببطء وبثقة ، أقولها هكذا . . .

(لقد شاخت عقولكم) . . أعيد تأمر سحنتهم فى تحد . . أكررها (لقد شاخت عقولكم بحيث لن ترون أيام أفضل .. نعم)

الحراس يتقدمون نحوى ، يحاصروننى ، أتوسطهم مرفوع الهامه ، أضحك أنا ، لابد أن تكون الضحكة بصوت عال . أكمل الحوار . . . الآن ، والآن فقط يا صديق سوف أتقدم معكم . . لكن ليس قبل أن تسمعها منى ، وتسمعوها كلكم . . هنا أتوجه برأسى إلى الجمهور . . .

(لقد فعلت فى حياتى كل ما ظننته أنه الحق ، كنت لكم جميعاً ، كنتم توافقون على ذلك وتفرحون لمقدمى .. ليل نهار .. كنتم تتركون لى مضاجعكم وحافظة أموالكم القليلة . ليس خوفا منى ، بل حباً وتقديراً . أما أنا فقد عشت بينكم عفيفاً زاهداً بتولا . . حتى أحسستم بعدم جدوى أفعالى . . فأعلنتم العفة والأمانة . . ولما كان الأمر كذلك آثرت العزلة) .

.. هنا يجب على أن أعيد الجملة الأخيرة أكثر من مرة ، مرة ببطء ، ومرة بسرعة ، ومرة بصوت منخفض ، ومرة بصوت مرتفع ، ومرة واقفاً ، ومرة ساجداً . هذا ما يفعله المخرجون

الكبار حتى ينتبه الجمهور ويبدأون فى التصفيق . . صوت التصفيق يمزق جدران المسرح . . . لن أكف عن الصياح بنفس الجملة . الجمهور ينهض متطياً للمقاعد بالأحذية . . أكرر وأتابع بنفس الجملة ، الجمهور يشاركنى بصوت حناجرهم البشع . . أصمت ، ألهث ، أمسح عن وجهى العرق ، بعض من الجمهور يعتلى خشبة المسرح . . أتابع « لقد أحسست بالعزلة ، إلا أن العزلة عظيمة ، عظيمة لدرجة أنه حتى الصراع غير ممكن ... » ، قد أفقد القدرة على النطق من فرط الإجهاد . . على ألا أكف عن المحاولة حتى يضربنى رئيس الحرس . . فى هذا الموقف يجب ألا أنطق إلا بكلمة واحدة . . . « آى . . »

. . . ويسدل الستار »

.. خاتمـــة ..

. . فى نفس مكان اجتماع رفقاء المقهى كان عبده البطل شاغراً تساءلوا . . . « لماذا لم يحضر هم عبده البطل الليلة بعد افتتاح المسرحية ؟ » .

لم يجدوا جوابا شافية .

فاجأهم النادل بمخاوفه « يا جماعه أنا لم أر البطل هذا الصباح »

صعدوا إلى شقته ، لاحظوا أن الشقة مضاءة . . ضربوا على زجاج الباب الخارجى ، إزدادوا طرقاً .

حطموا الباب . . كانت المفاجأة . . لقد وجدوا عبده البطل غرميا أمام المرآة جثة فاقدة النطق . .

تساءل أحدهم بخبث . . .

« لكن كيف افتتحت المسرحية ولم يكن عم عبده البطل بالمسرح » ؟ . .

... صمت عربيد يحتوى الأشياء بين طياته إلا صوت خطوات مفزوعة هامسة تهرس رقعة المكان المنبعج المظلم .. الصوت لقدمين داخل حذاء من المطاط يحملان ساقين نحيلتين وعينين مبحلقتين وأنف . أنامله ممدودة تتحسس فى الظلام محتويات العيادة وقد خلت من زوارها فى تلك الساعة المتأخرة .

.. على غير توقع ضج المكان بصوت فاجر فاضح .. كان لكوب من الزجاج الرخيص .. جز على أسنانه مضغ لعابه . حك مقدمة أنفه ، سحب شهيقاً عميقاً .. سعد بصوت زفيره .. قلبه يكاد يقفز منه إلا أن أنامله من جديد عادت تحرث فى المكان . مجتهداً يعيد إلى ذهنه صورة الأشياء .. هنا ساعة الحائط

ذات الإطار الذهبي ، هناك لوحة إطارها فاخر لاحدم . . لا يعرفه ، تحسسها ، إبتسم رفع يده عنها .. وهذا جهاز عفريت صغير الحجم . . به يعـــرف الطبيب أن بأحشاء الأنثى جنيناً ينبض .

. . . بأمس الأول جاء ومعه زوجته إلى عيادة التوليد هذه ورفع الطبيب جهازه السحرى ، ألصقه بلحم بطنها الأبيض ، لاحظ أن لزوجته بطناً لامعاً منتفخا مشدودها كأنثى البورى فى موسم الإخصاب . . ضحك ، صوته العالى جعل الطبيب يرميه بنظرة شذرة .. لم يعتذر .. همس فى أذن زوجته بما دار برأسه لكرته بدلال . . تراقصت رأسها كسنبلة القمح الأصفر تهزهزها نسمة رقيقة .

الطبيب رمى جهازه ، فتح دفتره ، رسم أشكالا بلا معنى . الزوج أخرج جنيهين فى عشرين ورقة من فئة العشرة قروش ، أخذهم الطبيب بلا اهتمام .. كان مشغولا فى حساب إيراد الليلة ، لحظتها اندفعت رياح هائجة من النافذة . . جرى ليحكم إغلاق النافذة . . لاحظ أنها تطل على حارة مظلمة . عاد شارداً ، فهمته زوجته .. فكره شيطانية واتتك) نطقت بها عيناها وقد

بدت بالكحل الأسود كمحارة البحر المفتوحة لتعرف أحوال العالم من حولها . . زوجها حاول ألا ينظرها .

. . . ما أن وطأت أقدامهما أفـــريز الشارع . . وسارا متجاورين . . ومن حولهما أناس لا يعرفونهم . . ومن فوقهما سماء تنذر بالمطر . . ومن تحتهما أرض متسخة يلزم الحرص للسير عليها .. حتى تبادلا الصياح ..

.. الزوج ـ هل رأيت ؟ .. الزوجة ـ ماذا ؟

ـــ الفلوس .

ـــ وما شأننا ، دع الملك للمالك .

ـــ لكن فيها فلوسي . ـــ لا ، بل تعب الرجل .

ـــ إنه أخذ مني عشرين ورقة .

ـــ من وريقاتك التي لا تذكر .

ـــ لكنها كل ما أملك .

ـــ ألا تسمع عن ورقات أكثر قيمة ؟

ـــ أعرف ، يكفيه ورقة واحدة فقط . ـــ فقط ؟

ـــ نعم فقط ، هذا قراري . ـــ ماذا .. ما قرارك ؟

ـــ أن أعيد أوراق التسع عشرة ..

(مجرد سرعة)

.. نزلت المدينة لأول مرة .. سرت بلا هدف .. أشعلت سيجارة .. عدة سجائر .. غرقت وسط الآخرين .. تأملت كل شيء من حولى .. لمحنى .. كان زميل دراسة ، لم أكن قد قابلته منذ سنوات .. محتقن الوجه ، خطوط من العرق تمزق صفحة وجهه .. ما زال قصير القامة ، نحيف ..

.. قال كلاما كثيراً ، تكلم عن رئيسه القذر ، وزملائه الثعابين .. عن « عم صالح » الساعى المريض .. أفاض فى وصف وجه الساعى وفى مرضه المزمن .

.. طلب سيجارة .. أشعلتها له .. بعد أول نفس تكلم

عن زوجته المجهدة وانحصارها بين العمل صباحا والعمل فى منزلها ليلا . . « أهملتنى . . لم تكن كذلك . . تصور » . .

إنتقل إلى الأتوبيس الذى غرق فى النهر .. « الشائق كان مخدراً . . أكيد ، عاد وأكد » .. « أبداً إهمال الصيانة السبب » هنيهة وتابع « تعتقد لماذا .. هه » ؟؟

.. لم ينتظر رداً منى .. تابع « هل سمعت المطرب الجديد.. صوته حميرى ومع ذلك نسمعه كل يوم وفى كل مكان . . عندى شرائط وأسطوانات قديمة . . عظيمة . لكن يا خسارة » .

حاولت مقاطعته « أية خسارة تعنى » ؟

.. لم يرد .. « أنا منتظرك الليلة .. بعد الساعة الثامنة ليلا . . إياك النسيان .. أسوأ شىء يصيب الإنسان مرض النسيان » :

. . صافحنى ، قبلنى ، غرب عن وجهى ، بسرعة إختفى وسط الآخرين .

نظرت حولى مرتبكا . . لقد نسى أننا لم نتزاور مرة واحدة من قبل ولا أعرف له عنواناً » .

.. عندما وصل إلى مدخل السوق .. رعشة مجنونة أمسكت بأوصاله ، بعدما عاد إلى هدوئه ، حك فروة رأسه ، إبتلع مخاط أنفه وهو يسحب جاموسته أو هى التى تجره خلفها إلى قلب الساحة الكبيرة حيث يتجمع الجمع من القرية والقرى المجاورة للبيع والشراء .

.. بالسوق الشراء والبيع بالمقايضة وبالمال وبكلمة الشرف وبكلمات لا معنى لها وبالسرقة ، الأمر لا يخلو من حادثة أو اثنين على كل حال .

عم حسين لم ينس أن جاموسته .. طمرها « بالليفة » التى لا يستخدمها هو نفسه ، ألتى عددا من صفائح المياه الدافئة ،

لا يمنع وضع قليل من الملح فى عليقة الليلة السابقة .. لتشرب مزيداً من الماء يجعل العينين أكثر بريقاً والبول أقل اصفراراً .

. . . (الجامعة دخلت منذ شهر فات ، والواد مستعجل على المصاريف يا أم احمد) قالها الرجل معتليا المسطبة المرتفعة لزوجته المتكورة أمامه فى ركن بعيد وهى متشرنقة داخل جلبابها الأسود ، لا شىء يتحرك فيها إلا عيناها ، ما بين الفينة والفينة تهز رقبتها .. بالرفض .. بالاعتراض .. بالانتباه .. بالاندهاش بالسرور .. بالحزن .. فى كل الأحوال يفهمها زوجها ليتابع .

(لكن الجاموسة معشرة)

(والواد . . .)

(خسارة نبيعها ، نصبر شهرين ، ثلاثة ، أربعة)

(والحكومة تصبر ؟)

(العوض عليك يا رب ، نبتعها فى السوق .. جهزيها وأكليها ، ثم صمتا معاً ، وفى لحظه واحدة .

.. الآن تقدم إلى الجاموسة ، المعلم معروف د ..إذا ماتقدم لا يرجع صفر اليدين .. له ما يريد سواء رضى البائع أم لم يرضى . من خلفه وقف رجلين الشاهرين ومن خلفهما ماسورتا بندقيتيهما

تجاهله عم حسين ، ابتعد الناس ، التفوا حولهم .. حالاسيشهدون المشهد المشهور ، وقف المعلم ، أشار بأصبعه نحو الجاموسة ، إذا ما فعل يدفع ما يريد ولا راد لطلبه ، عم حسين مصمص شفتيه .. جاموسته تململت .. أمسكها من ذيلها ، دفعها نحوه .

« ترفض يا حسين »

« وأنا لا بايع ولا مشترى .. السلام عليكم »

الرجلان التفا حوله ، الرجل وقف يحك فروة رأسه وهو يمارس عادته العصبية .

« والحل يا حسين »

« عند الله يا معلم معروف .. لاحقة ، (الجاموسة أنا اشتريتها) قالها وهو ينظر إلى بؤرة عينى الرجل . . تابع « أنا يعجبنى الرجاله الجدعان » .

« الثمن أقل من ثمن العجل اللى فى بطنها يا معلم »

ما أن قالها حتى انقلبت الدنيا .. هللوا .. صاحوا .. هاجوا .. عم حسين بات أضحوكة .. الدائرة زادت دوائر هو مركزها ، القادم ينظر ويضحك ، المعلم معروف يضحك إذن فاليضحك الحاضرون .. ضحكاتهم معدية كالخوف .. إلا حسين

الفلاح الذى هاج قائلا ..

« الجاموسة عشر ، أنا معشرها فى الوحدة البيطرية . .
هاتوا الدكتور » جاء الدكتور ، تقدمهم .. ما أن لاحظ المعلم
أدار ظهره ، المعلم قذفه بنظرة واعدة متوعدة. فهم الجساس ذلك
الرجل المعروف بين أهل القرية بمهارته فى معرفة ما إذا كانت
الجاموس عشر أم لا ، لذا ينادونه بالدكتور .. ولنفس السبب
يستدعيه يوم السوق ليحكم بينهم . . .

إنه يعرف معنى تلك النظرات النارية التى قذفه بها المعلم ..
خلع جلبابه ، دفع ذراعه بحذر .. إرتاح « عمى حسين » ..
هذا يعنى حرص الجساس حتى لا يجهض الجاموسة .. إزدادت
ضربات قلبه ، وسعل سعالا جافا . العيون كلها ناظرة والآذان
صائغة لكلمات الرجل . . .

« الجاموسة فارغة » قالها الجساس وهو ينظر إلى الأرض .

.. « عم حسين » أمسك بتراب الأرض من تحته وقد
اختلط ببول جاموسته ، كون منها حفنة ملأت كفه المرتعشة . .
رمى بها إلى عينى الجساس وهو يرتدى جلبابه بسرعة .

« إرتحت يا حسين » قالها المعلم وهو يسحب قلنسوته إلى نصف رأسه .

« كداب ابن كداب » ثم دار الرجل حول جاموسته مربتاً على بطنها البادئة الانتفاخ متمتما بجملة واحدة « على الطلاق معشرها .. على الطلاق معشرها » .

ضحك المعلم ومن معه . . « أنا على الطلاق لو كان الجساس قال إنها عشر كنت دبحتك . .

بيني وبينك ربنا . . الحق حق . . أنت راجل بتاع ربنا وأنا كل الناس عرفاني » .

.. « والله العظيم معشرة .. معشرها يا ناس »

. . « حسين الفلاح » أمسك بالحبل الملفوف حول رقبة جاموسته ، لفه حول أرجلها الأربع ، سحبه دفعة واحدة .. لا أحد يدرى من أين كانت له هذه القوة ، خطف سكينا من يد أحدهم ، اندفع ثانية إلى جاموسته الهائجة .

إبتسم المعلم ، قال لأحد معاونيه « المجنون ذبح الجاموسة .. لا هو طال أبيض ولا أسود » .

(الرجل يبقر جاموسته . . يخرج عجلا فى طور التكوين)
قالها آخر .

الآخرون ضجوا بالضحك . . مثلما فعل المعلم .

أما وقد أكد لهم أن الجاموسة عشر ، جلس إلى الأرض وهو يصف لهم كيف عشرها بالوحدة . .

قصابوا القرية تقدموا لشراء الذبيحة ، ما أن يتقدم أحدهم تلاحقه نظرات المعلم ومعاونيه ، يهمسون فى أذنه بكلمات قليلة.. بعدها ينتفض نعيداً مردداً ..

(أستغفر الله العظيم . . أستغفر الله العظيم)

الرجل مرتبكا :

(قلت لهم إيه يا معلم ؟ .)

. . (قلت الحقيقة يا حسين)

(وإيه الحقيقة يا معلم ؟)

. . (الحقيقه إنك ما قلتش البسملة ..) .. (ما قلتش بسم الله الرحمن الرحيم) .

. . . « عم حسين » عاد ثانية وارتمى إلى الأرض بجوار

ذبيحته الساخنه ، ما زالت بعد تتخلص من بقايا الدم بتلك التقلصات العصابيه الملحوظة .

الرجل ذاب فى حركاته العصبيه .. عضلات وجهه تنقبض وتنفرج . . وتذوب .

فجأة انفرجت شفتاه ، صاح زاعقا ، إنتفض واقفاً . . . لقد قرر حالا أن يبيع ذبيحته بنفسه .

سحب صفيحة قديمة صدئة ، وضعها على الأرض ، ضرب عليها إيقاعاً رتيباً . .

الأطفال التفوا حوله . . .

إبتعد المعلم وهو يؤكد أن حسين جن . . (أكيد جن)

المجنون جمع الأطفال حوله . . يردد ويكررون .. يغنى ويحفظون عنه . . إنشغل عنهم ببيع ذبيحته بنفسه . : إستمروا فى الغناء .. وصارت لعبه ، حتى انتهى من بيع كل الذبيحه . . وسار بها الأطفال ينشدون ويمرحون ويرقصون .

وباتت الأغنية تردد على كل لسان .. على رأس العروس ليلة زفافها ، وفوق شواهد المقابر .. يقولون ..

(تعالى وفرب

شوف واتذوق

عم حســـين

بيبيـــع جـــرامين

فوق الوزن .. وبناقص شلن . .)

« لحن الرندو الحزين »

(أ)

.. يقال أن كلمنجارو أعلى جبل فى أفريقيا ، وقمته تسمى « بيت الله » ، بجوار هذه القمه هيكل لفهد متجمد ، ولا يستطيع بشرى أن يتصور ماكان يبغيه الفهد على هذا الارتفاع .

(ب)

.. قراره لا رجعه فيه ، لن يكون كما يبغى الآخرون (لن أكون إلا نفسى) .

نطق بها يوما ما بينه وبين نفسه « ترى هل هناك شىء ما بين الإنسان ونفسه ؟ » .. كان جالساً إلى شارع النيل ، ممسكا

بورقه وقلم وكتب قراره ، وتساؤله ، ثم كورها وألقى بها فى النهر « كونى خالدة خلود النهر » .. يتهمونه بالرومانسية ، يعترف حينا وأحيانا يسب أجدادهم لاعنا .. وفى كل الأحوال لم يغير من قراره ..

اليوم فقط قرار آخر .. لن يترك الآخرين على حالهم « نعم لن أتركهم يفعلون هذه الأوساخ » .

— ومن يقيم هذه الأفعال ؟

— أنــــا ؟

— لست رأس الحكمة .. ولا عين العقل .

— ومع ذلك مصر ؟

— نعم .. لن أكون إلا نفسى ولن أترك الآخرين .. هذا قرارى .

« أ »

.. يقال أن سيزيف أسطورة .

لحن الرندو: يتميز لحن الرندو بتكرار قيمة معينة من خلال اللحن الأصلى وهو يقابل فى الموسيقى الشرقية « البشرف » ويمكن تشبيهه بـ أ ، ب ، أ ، حـ ، أ ، د . .

.. آه يا سيزيف عرفتك أسطورة وعشقتك فينا . حملت الصخر ، أمرتك الآلهة فصعدت الجبل جبراً ، وهبطته قهراً ، فهرتك قتته . . قلبي كله معك .

.. الطريق إلى القمة وعر ، ملىء بصخور مدببة ، ضئيل أنت بجانب المكتل ، بين صخرتين يكون الظلام دامساً . بارداً . وعواصف .. تعود ثانية تصد الكرة ، لتصعد ، وتعجز ثم تهبط حتى صارت اللعبة .

.. تصعد . تهبط . الصخرة محمولة فوق منكبيك والعرق حتى ركبتيك ، ودمك أحمر يصبغ الأشياء من تحتك ، الدم يرسم قدميك المفلطحتين ، إذا ما سرت فوقه يكون لهما رسم يشبه وجهك يا سيزيف .. مشقوقاً .. يا عيني .

. . يشبه العالم وجهك يا سيزيف .. سطوح وندب .. علو وهبوط .. وعرق ينساب في كل مكان .

. . عار الجسد أنت .. حتى صرت رمزاً . لو لم يكن المثالون يعرفون .. يا أصدقاء هذا هو جسد عزيزنا سيزيف .

عينان بغير جفون . . دوماً ترسلان نظرات حذرة . . قل عنها متحفزة .

أما الساعدان فلهما أوصاف الأخطبوط .. إذا ما قاتلتا ، وجناحا حامة إذا ما راقدا فوق بيض . وصدره المفتول العضلات نموذج .

حلمتا صدره نافرتان وخط من الشعر الأسود بارز من تحت السرة ، وعضوه الذكرى تعرفه إناث المدينة .

سيزيف لم يكن أبداً مغتصباً لأنثى ، هن يشتهينه ، فقط يعرفان مافى رأسه ، إنه يبغى فراخا صغيرة ، لعلها تعاونه فى حمل الصخـــرة .

لا تنسوا يا متألين الصخرة .. فهى فى حمسه .

ولا تنسوا يا عقلاء القمة .. فهى فى عقله .

(جـ)

.. المكان .. موقع لعمل هائل الضخامة والأهمية .. فى مكان ما .

.. الزمان .. زمان البناء فى وقت ما .

من عليائه حيث يعمل سائقا لإحدى الأوناش الضخمة المستخدمة ، كان يرى الآخرين فى ضآلة الفئران .. إلا أنه يراهم جيداً بل ويعرف كل صغيرة وكبيرة هناك .

عندما حضر مبكراً كعادته كل صباح لاحظ أمراً غير عاد ، محاولات .. تمهيد طريق وسط أكوام الأحجار والأتربة ، طلاءات جديدة ، ألواح كتبت بالخط الكوفى .. وأنوار فى وضح النهار .

تساءل .. « ماذا فى الأمر » ؟

قالوا .. « رجل هام جداً سوف يحضر » .

.. « ترى من يكون ؟ »

.. فى ركن من الموقع متأملا أتربته ، شرد ، « هذا يومك» « نعم سوف أقابله لأقص عليه كل صغيرة وكبيرة ، لن أدعهم يكذبون أمام أذنى ولن أسمح لعينى ترى نفاقهم الباهت » .

(أ)

.. يقال أيضاً أن الفهد عندما وصل الكهف وأر زئير أسد ولم يسمع رداً ، نظر ملياً إلى الثلوج من حوله ، لم يجد إلا شيئاً ما يسرق النظر .. أغمض جفنيه . . كان ذلك انعكاساً لضوء الشمس المتسلل من بين الأشجار الكثيفة على الثلوج الناصعة البياض ، إلا أنه عاد وحدق النظر ، ماكان ليصعد ، ويعانى كل هذه المشقة حتى يغمض عينيه ، حدقتى عينيه ازدادتا اتساعا ،

بياضهما تشققا بشباك من العروق المحتقنة ، جفونه المسكين التهبت وتورمت حتى ضاق اتساع رؤيتهم .

ولم يمـــل ولم يـــكل .

.. ويقال أيضاً أن سيزيف صنع كهفاً ، ورسم طريقاً عميقا فى الجبل صعوداً ، وهبوطا ، ولم يلق ما لقاه الفهد .. كان مشغولا بالصخرة فوق كتفه .

.. وأكد القائلون بأن الفهد وسيزيف كليهما فاقد لأمل ، مصراً بالعمل لهدف .. ومن المؤكد حقا أنه مجهول لدينا نحن .

(د)

.. ما كان من صاحبنا إلا الانتظار ، حتى وصل الركب ، تجمع الجمع ، رفعت الأعلام ورش الرمل وتقدمت الفتيات بالورود والصبايا بالمشروبات والهدايا والكل أحيط بعدسات آلات التصوير السينمائية والصحفية .

.. وسط الدوائر الملفوفة حول المركز حيث أناس لا يبدوا منهم شىء .. لعلهم المسؤلون بل أكيد هم أو هما أو هو .. ضالته التى يبحث عنها ليقص ويحكى ، ويروى بالتفصيل ثم ليهـــدأ .

.. إقترب منهم جميعاً .. حاول أن يتكلم ، صوت حنجرته مخنوق بين أصواتهم الزاعقة ، جسده النحيل يقاوم زحامهم ،

.. أخيراً التصق بأذن أحدهم .. سأله ..

— (نعـــم) . .
— (هل هو مسئول كبير ؟)
— (نعـــم) ..
— (هل جاء خصيصاً لكى يعرف الحقيقة) ؟
— (نعـــم) .
— (كيف) ؟
.. الآخر نظر إليه شزراً .
— (هل يريد معرفة المزيد) ؟
— (نعـــم) .
— (كيف أصل إليه لأقص كل ما أعرف . . عندى أخبار يشيب لها الولدان ، عندى حقائق تأخذ بالعقول ، ويجن منها الحكيم ، وأعرف بالأرقام والأسماء وأعرف بالـ . . .)

— (هل جننت) ؟

— (لا) .

— (هل تشككك فى كل ما سمعنا) ؟

— (لا أدرى ماذا سمعتم) .

— (هل تريد إفشال المشروع وقتل هذه الفرحة) .

— لا .. بالتأكيد لا .. ولكن لماذا الفرحة .. ألم تعرفوا الحقيقة كما فهمت ؟

— (نعم . نعم) .

— ولكن من المسئول عن هذا الذى أرى ولماذا حضر ؟ أليس الهدف معرفة سر تلك الشكوى الخطية المكتوبة والتى تقدمت بها ؟ .

— (يا غبى .. إنه وفد صحفى كبير ، جاء ليسجل بالقلم والصورة أمجاد هذا العمل العظيم ، الهائل المعظمة) .

.. وعاد صاحبنا إلى عليائه ، نظر إليهم ثانية من فوق ، والركب كله فى طريق واحد نحو دفتر التوقيعات .. ضحك .. وظل يضحك حتى دمعت عيناه .

* * *

« الانفلات » أو « الموت شكل آخر »

إن فى صعود الجبل مشقة .. لكن هناك دوما من يحاول .

١ — سفح الجبـــل ..

(أ)

جلس ابن نوح يفكر .. عار الجسد هو إلا من لفافة حول عورته .. نسى أنه لم يذق طعم الزاد منذ سمع الخبر لأول مرة .. عليه بالرحيل حالا ، وإلا الموت بل بديل ، ولا حل وسط .. هذا ما قاله النبى نوح لأهله وعشيرته .

إبن نوح نظر الأشياء .. تحت جذع الشجرة هذه ولد وتعلم الحب ، فوق تلك الرمال جرى وأمسك بتلابيب الصبايا ،

جرانه .. هنا عرف أن للغوص فوائد وأن البحر ظاهراً وباطنا .. ودنيا .

(الآن و عادت الأشياء كما عرفها ، تبدلت ، إنقلبت رأساً على عقب .. هكذا دوما المشهد قبل الأخير .

النبي نوح قاد الجماعة ، أقنعهم ، ألبسهم ثوب القناعة ، وصاح فيهم (ما بعد البعد بعد) ، الآخرون تشاوروا ، تحاوروا ، تشاجروا وتناحروا .. نبيهم أمهلهم حتى يصنع سفينة .

أشجار القرية باتت سفينة ، نخيلها صارت صوارى ، جريدها أصبح مظلة .. وظل الولد .. ولده .. وحده من بعيد ينظر .

(ب)

إنتفض ، لتد لمعته بقايا سيجارة ، إندهش عندما لاحظ قدرتها على إدباكه بالرغم من حجمها الضئيل .

نظر إلى الحقيبة بجانبه ، جواز السفر بها ، ولا تدرى نفس ماكسبت ولا بأى أرض تموت ، أشار ليطلب القهوة ، تجرع فنجانين من القهوة ، أحدهما سادة ، نظر إليه النادل ، أنت لسه شباب ، وضحك الآخر أخرج ما بين شفتيه مجاملا .

أمسك بالجريدة .. تصفحها ، بدأها من الخلف ، رمى نظرة

فاحصة إلى صفحة الوفيات ، صورة صديقة ملتصقة بها ..
وجهها فى كل الصفحات ، رمى الجريدة .

عليه بالرحيل حالا ، إلى أرض غريبة ، ولم يتعود الغربة ..
فى كل مرة يعود فيها يقسم ألا يعيد الكرة ، ويكررها .. فقط
أن تسكون فى أرض جديدة ، وشوق لحبيبة باق بعد أن يترك
المدينة ، أناس بجانبه يتهامسون ، آخرون يرقصون بالكلمات
المناضد منثورة بغير انتظام كمشاعر الجالسين إليها .. على أرض
القلق يغلف الأشياء ، إنها لحظات الرحيل .

(جـ)

.. (قرارى أن أحبك بشكل جديد ، أعلنها ، أصرخ ،
« أنا أحب ») .

.. (حتى لو احتقنت أذناك ورطب الندى جبهتك ، و . .
وارتعشت أوصالك .. لن أتردد) .

.. (حتى لو وقف الآخرون سداً ، وكان الطريق وعراً ،
والعيون منثورة على أعمدة النور ، والألسن ممدودة على الطرقات)

.. (سوف أمسك بيدك .. كل كفك بين قبضة أصابعى
ونعدو ، ونقفز . ونتوه) .

(٢) فى الطريق إلى القمة . .

« أ »

المشهد يغلفه الجلال ، والناس شبه نيام ، الأمهات ترضعن أطفالهن فى صمت، والعجائز يبثون فى القوم العجز ، . . والرجال يحيطونهم من الخارج . . يسبقهم نوح ، وفى المؤخرة من كل جنس زوج ذكر ، وأنثى .

وابن نوح يصيح « يا قوم . . أما أنا فلى رأى آخر . . أما الموت فمن عند الله ، والحياة أيضاً . . لماذا إذن تذهبون ؟ ! هذا أبى يوصيكم ، وها أنا بعد لحظات أعتلى الجبل .. نعم فى صعود الجبل مشقة ولكنه سوف يعصمنى ويعصمكم ، يا قوم لا تطلبوا النجاة ، أطلبوا أن تكونوا أنفسكم وسيفعل بنا الله ما يريد ، وقتما يريد ، وكيفما يريد . . لكننا فقط . . نفعل » .

وحده بدأ يصعد . وحدة أحس بالوحدة وبالقشعريرة . . صاح . . . جاءه رجع الصوت عال . رد وصاح أكثر حتى بح صوته ، وكلت حنجرته . . أول الأمر سعد . . أحس أنه قادر على شىء .. أما عندما تأكد أنه يصيح لنفسه وأمام نفسه ، دون أن يدرى بكى .

كان بكاؤه المسكين غريباً . . بغير دموع ، بغير الكلمات ، وحتى بغير أن ترتعش شفتاه ، أو تحتقن عيناه .

« ب »

قبض بإصبعى الإبهام والسبابة لكفه اليسرى على أعلى عظمة أنفه ، ضم جفنيه ، حك زاويتى عينيه ، تقلصت عضلات وجهه . . ثم إبتسم !

عاد وسحب إصبعيه دائماً محيهما جلد صدغه لأسفل ، جفونه المشدودة جعلته يرى الأشياء مزدوجة مرة ومائلة مرة أخرى . . فضحك !

أعجبته اللعبة ، هم بها ، كررها ، ثم قهقه .

صمـــت .

الآخرون يرمونه بنظرات لاعنة ، كلهم أمامه لا أكثر من عينين واسعتين ، ولسان مدلى ، وخط من اللعاب المدمم اللازج ينزلج من طرفه إلى تحت ، إمتلأ المكان باللعاب ، المناضد الخشبية سبحت ، المقاعد طافت بجالسيها ، الأغطية القماشية تعلو المكان تصنع مظلة . . طوفان بثاقبهم مر .

... « إنه الطوفان يغرقنا ، أمسك بالأغطية ، ضرب المنضدة

وكل المقعد بقدمه « لن أغرق . إنها ثرثرة ألسنتكم . . لا أريد الموت فى بحر من الكلمات الفارغة . . عندما أقرر الموت ، سوف أموت بطريقتى . . دعونى .. لن تهون على نفسى . . سأظل محتفظاً بهـا حتى آخر رمق عندى .. هى لى .. هى ملكى .. هى . . . . . » .

. . . النادل دفع صاحبنا من كتفه .

« أعوذ بالله » .

النادل .. « كنت بتحلم » .

« أكان حلماً .. ؟ » .

وما أن نظر أمامه حتى هاج ثانية ..

« جواز السفر » . . . « التذكرة » .. « البوليس » . . « النيابة » .

النادل . . « منذ حضرت لم أر أمامك إلا الجريدة »

« إذن أنت ، لن أتركك ، يا شرطه .. »

التفوا حوله ، خلصوا الرجل من بين يديه ، أجلسوه، بدأوا يتحاورون معه بعد أن أعطوه سيجارة .

. . . « دعونى أقول لا . أقول نعم ، كيفما شئت .. أصيح صياح الديوك فى الصباح ، ودوماً يسبق الأذان صياح ديك » .

. . دعونى أحب ، أترك من أرفضه بعيداً ، أقترب منها ، منه ، من كل الناس . . ودوماً لى عند البعض شىء ولهم على فضل وفعلت . . دائماً أفعل . أخطىء ، أصيب ، بلا تردد أكرر . . ثم أحاول ثانية ، ثالثة ، للمرة الألف » .

. . . « دعونى أذهب ، أروح وأجىء ، إختفى .. ثم .. ثم ماذا .. قد أظهر وأعود وأفعل » .

. . . « وقد . . . وقد لا أفعل . . أموت » .

ثم جلس إلى المقعد . . إزدادت بشرته حمرة ، برقت عيناه ، حدقت فى اللاشىء ، رفع حاجبيه ، أنزلهما مقبضاً على جفنيه ، عيناه باتت خطا من الجفون الملتصقة ، ودمعة كبيرة ملأت زاوية عينيه ، حفرت خطا على عظمة أنفه .

حبيبته التصقت به .. إزدادت إلتصاقا ، الدمعة الكبيرة الساخنة . . سقطت .

صمت هـــو .

أما هى فلم تجد ما تقوله . . صارا جسداً واحداً ، هى دائما ملاذه . . ودوماً تكون .

« ٣ » ما زلنا فى الطريق إلى القمة . .

« أ »

ما زال ابن نوح فى الطريق ، رافع الرأس والرقبة ، ثابت القدمين ، زائغ العينين ، شارد الفكر . . كان .

منتصب القامة ، منتظم الخطوة ، نحو القمة . . . كانت .

الرياح تراقص خصلات شعره ، وصوت قبيح يدور فى رأسه . . وبرق بالسماء .

رفع ذراعيه ، وأسقطهما . . حرك قدميه لفوق وتحت . . مال بجزعه . . الآن وحده يراقص الجبل . . ما عادت القمة بعيدة ، على مرمى البصر هى . مال برأسه ، قذف بذراعيه ، دفع برجليه ، إنثنى بجزعه يمينا وشمالا عاد وكررها ، علا صوت الرعد من فوقه ، أسرع من إيقاعاته الراقصة . صوت الرعد عال ، حركة أطرافه تسرع .. الغيوم غلف الأشياء .

وكل شىء فى انقلاب إلا أن ابن نوح ما زال يرقص .

« ب »

وجاء صوت آمر ، الطائرة حالا سوف تقلع .

فتح الحقيبة ، تأمل جواز السفر ، الدوائر البنفسجية متلاصقة ، كل الصفحات تملؤها الأختام .

وحده سوف يرحل ، سينظر الأرض من عليائه ، وسوف ألعنها . . . للأسف لن يخترق بصاق زجاج النافذة . . لكنه بالتأكيد ، بالتأكيد سوف يظل عليه حتى يجف ، سوف يكون للبقايا وجود ، دائرة باهتة فوق الزجاج اللامع » .

حمل أشياءه . . تركهم وهم ما زالوا يقولون . . كلمات بلا معنى . . . قد يكون لها معنى ولكنه لم يسمعهم .

تركهم .

« جـ »

« أمسك عينيك .. أحلف بهما ، أسافر معهما ، أذوب فيهما أحمل خصلات شعرك . . أبعثرهم ، أتدثر فيهم ، أتسلق ، أنزلق وأتوه بلا عودة » .

عندما صمتت حتى انتهى من كلماته . . إبتسمت ، ضحكت ،

قهقهت . . . أما هو فقد انتظر شيئا ما غير البسمة ولا الضحكة ولا والقهقهـــة .

خاتمة مشتركة . . .

. . « يقولون أن فى الصعود مشقة . . ولـكن ماذا بعد القمة ؟ ! » ابن نوح واصل كلماته . .

. . . لم يخبرونا بشيء عما فى القمة » ؟

بعضهم يؤكد أن ابن نوح عندما وصل قمة الجبل ونظر إلى أسفل كان الطوفان يغرق الأشياء ويقترب من أنفاسه . .

ولما لم يجد طريقا يصعد عليه .. ولما كان الطوفان .. صاح .. كان صوته قويا « الوحدة موت .. الموت وحدة » كررها والطوفان يقترب « الوحدة موت » . . بدأ يشعر بالإجهاد . . « الوحدة . . . موت » . . خر ساجداً لتحت والغرق يحتوى الأشياء حتى حافة قدمه . . ولـكنه ما زال بعد يصيح . . ويكرر « الوحدة موت . . . موت . . . موت . . . » .

{ الطاعون }

.. للحقيقة كانوا أقوى من زندى .

خرجت من المدينة وأنا أرسم خطوات رجوعى . . خطوة للخارج وخطوة بجانبها تماماً . . معكوسة !

.. دخلت المدينة ولا أعلم عنها شيئاً البتة مع ليلة لا أدرى لها صبحاً .

. . قابلونى بالصمت ، إذن سأجرب الكذب .. أول من قابلك كان شيخا هرما . نحيف العود وقور المشهد ، غائر العينين مشقوق الشفتين تائه النظرة ، صامت الكلمة ملت نحو رأسه .

« جئت أخبركم » .

.. لم يعرنى اهتماما .

« الطاعون قادم » .

وكأنها صحوة الموت بل حقنة اليانسون . . صاح فى وجهى التفوا حولى . . سألوه قال لهم . . لم يفهموا ! !

« أنا ومولانا الملك نعرفه » .

. . الصمت الأخرس تكلم . . كلهم لسان يسأل « ماذا قال الغريب القادم ؟ ! »

دفعنى من يدى .. « إلى أين ؟ ! »

« إلى مولانا الملك »

« إذن ضمنت وجبة العشاء السمينة والنومة الهنيئة . . والغد يوم آخر »

« العقد اللؤلؤ يتدلى من رقبة مولانا الملك ، وعنقود أخضر لزرعة العنب حرمت منها فى مدينتى البعيدة .. تصلبت عيناى فوقه .. ظنوا بى ظن السوء « صدقونى لست بالمحتال الماكر » كانوا بعد لم يسمعوا الخبر !

.. سمع الملك قولى الشيخ برقت عيناه ، تذكر أياما كان فيها طفلا داهمهم فيها الطاعون وأخذ معه نصف أهل المدينة واليوم

عاد من جديد ياله من يوم أحلك من سديم ليل بغير قمـــر ..
ليلتنا السوداء .. يا . . .

. . أخذهم الخبر .. حتى صدقت قولى « إنه الطاعون يجب أن نعد له كل العدة » مولانا الملك يقول لى .. « أنه الطاعون يجب أن نعد له كل العدة »

مولانا الملك يقول لى .. « ترى بماذا نبدأ ؟ »

« ببناء سور حول المدينة يمنع الدخول إليها والخروج .. تقديم القرابين والذبائح يجب ألا ننساها .. و .. و .. » وكثر الكلام .

وطال بنا المقام والملك يسمع وأنا أقص وهو يتذكر أيامه الأولى ويتدبر ليلته ليمنع ما له بد .

.. إلى وزيره .. نفذ يا وزير قول الغريب المخلص »

« من المحال تنفيذ المقال وأنا بين يديك يا مولانا عبدك ورهن إشارتك »

« ماذا تعنى » ؟ !

« أعنى ما قلت يا مولانا »

« إذن أقصيتك يا وزير .. عينتك ياغريب وزيراً لمملكتى

تنفذ ما قلت ولك ما شئت وحتى صياح الديك ليوم جديد أوى سوراً عالياً من الصخر المانع السديد .

« أمرك محل الطاعة يا مولانا » .. لم يكن أمامى خيار .

* * *

.. سار المنادى فى المدينة يدق فوق رؤوس الجميع .. عليكم بالعمل نحو حدود المدينة نبنى سوراً . . ليمنع الطاعون .. وقلت لهم ماذا أعنى بالطاعون !

أثاروا الغبار سحباً فوقهم زرعوا المعاول أمامهم ..

.. كانوا صفا واحدا وما بين الحين والحين يخرج أحدهم تجمعوا فكانوا صفا آخر نحو القصر . . « إلى أين ؟ ! »

« لماذا ؟ ! »

« نعترف له قبل أن نهلك »

بماذا ؟ .

« بكل شيء » .

حققوا لنا أمنية أخيرة قبل أن يدهمنا الطاعون . . لكم ما شئتم .. هال الملك أن يرى نصف المدينة حول أسوار القصر .

« ماذا يريدون » ؟ !

الحضور بين يديك يا مولانا

« لماذا » ؟

« لا ندرى سيدى . . لكل منهم طلبه »

جلس مولانا فى مجلسه وأمامه النارجيلة ينفس دخانها بتهم .. زائغ العينين .

ـ الأول ..

قالها الحاجب فى المدخل .. دخل أحدهم يقدم فروض الطاعة والولاء وبكى بكاء مراً . . ماذا ؟

.. قال أنه يعترف عن نفسه وجماعة من حوله دبروا أمراً لقتل مولانا الملك ..

ـ الثانى .

. . كانت سيدة وقورة يبدو عليها وفرة المال والصحة وللحق كلها فتنة وجمال .

.. وفى هدوء وبكلمات قليلة قالت خنت زوجى مع الخادم أحد العبيد عندى .

— الثالث .

. . كان شيخ شيوخ التجار هذا بالضبط لقبه الذى رسمه عليه الملك .. بين يديه صندوق أسود ، فتحه .. أخرج زاداً وزوادا من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان .. قال « كله حرام فى حرام .. سرقته من قوت أهل المدينة أقدمه لك قبل أن يهلكنا الطاعون ! » .

— الرابع لم ينتظر دوره ودخل يقبل الأعتاب الملكيه . كان شاعر المدينة وصاحب أجمل مديح ملكى وأعظم قصائد القصر . . يرددون قوله ويتغنون بكلماته ويرقصون على أنغام صدوه لهم . .

« وأنت ماذا بك يا شاعرنا الكبير » ؟ !

« جئت أحرق القصائد ، من يدرى لعل الطاعون يأخذنى منك أو يأخذك منا فلا تجدى الكلمات والقصائد الصفراء . وسأذهب حتى السور أضع فيه عرقى وجهدى حتى صياح الديك وحتى لا يأتينا الطاعون من الخلف . . وهرول للخارج بغير كلمة [illegible] .

.. وجاء خامس وسادس وعاشر ، بل الألف وما بعد الألف ، بعضهم جاء يلوّح بماله ، وآخر يلوّح بولده وآخر بأوراق لم تفض بعد !!

ـــ أشفقت على الملك حاله وعلى المدينة حزنهم الأسود ، ركنت جانبا أتأمل القادم والخارج وشردت أطل من النافذة وأشهد مشهد السور يعلو ويعلو . .

تقسيمات

(على نغـــم مرفوض)

— ١ —

.. أحس وكأن يداً خفية تسرقه من بين الناس . كأن ضلوعه تنشق عنه . . وكأن روحه ما عادت منه . . كبقايا الموج على رمل .. حطام سفينة ، عشب مزقته الأمواج ، وجثة سمكة!

أقسم بكل الغالى والموعود ، بالفردوس ، بالقبلة الحارة وبالمولود .

أقسم بعش أصغر من بطن الحوت .. يوم ردد كل التراتيل . . ليعـــود .

حين ألقى بجسده فى اليم وجد جوف الحوت .. وبرغم الظلمة والجوع بات يقول :

. . لو عاد ثانية لقومه . . لقاتلهم من أجل الكلمة .
والمسمود عاد .

يونس عاد عاد .

.. لقطة بعيدة : .. بقعة داكنة تمزقها شقوق بنية . . تبدو فى أشكال هندسية غير منتظمة حادة الأطراف مقعرة السطح . . ملقاة على جانب من ترعة صيقة .. ويحيطها من كل جانب بساط أخضر .

.. لقطة قريبة : .. دار كبيرة من دورين ، الوحيدة المبنية بالطوب الأحمر .. لها مدخلان ، الباب الرئيسى من خشب الورد ، تبرز عليه بقعة بلون الدم على شكل كف بشرية كبيرة غليظة أناملها طويلة ، راحتها مشقوقة تكاد بصمات صاحبها تنطلق ! !

إنها دار العمدة ..

.. إلى الداخل : .. داخل حجرة فسيحة بجوار الحائط اصطف للعمدة ، شيخ الخفر ، شيخ البلد ، خادم المسجد ، كبيرهم وقد جاوز المائة عام .. كلهم عيون محدقه إلى جالس القرفصاء ، أمامهم الواد أبو العينين .

حـــوار : .. ليه ياواد أبو العينين رافض تسلم « العادة » ؟!

أبو العينين « . . . صمت »

كبيرهم . « إنت اتجننت » ؟ قالها بجنون ! ! تشك ألف مرة في مقدوته على التنفس فإذا به يصيح بصوت عال .. عال جداً .. ثم انهـــد .

أبو العينين . . « . . . نظرة بعينين باسمتين » .

شيخ الخفر . . إياك عايزنا نحجز على المحصول ونخدها بالقوة » .

أبو العينين . . « لا .. لا يا شيخ الخفر ده عرقي وشقايا » .

شيخ البلد : « أيوه . . كده أتـكلم » ، « علشان نعرف نتفاهم » . .

أبو العينين : « ما عنديش كلام .

خادم المسجد : « ربنا يهديك يا ابنى .. لجل عيالك الغلابة »

أبو العينين : لهم رب يتولى بهم ».

. . أصوات متفرقة . . . « ونعمه بالله » .

شيخ البلد : « بس ربنا عطانا العقل » .

خادم المسجد : « وهديناه النجدين » .

أبو العينين : وبشرع مين نتعب ونعرق لجل ما يخضر الطين الأسود لنبيع ونأكل . . وبعد ده كله وقبل ما نبيع ولا نأكل نلاق اللى يخطف عرقنا وشقانا . . طب ليه . . ليه يا شيخ البلد . . ليه يا عمدة . . ليه . . لجل ما بنخاف من السبعاوى » .

. . ينظرون حولهم فى ذعر . . واحد منهم لعله العمدة . . لعله كبيرهم . . ربما آخر .

أصوات خرجت متداخلة يقول . .

. . « يخرب بيتك يا أبو العينين » .

. . « وبيت أهلك » .

. . « حتخرب بيتنا » .

. . أبو العينين . . عاد لنظرته الباسمة . . نظر إليهم فقط .

— ٣ —

. . فى يوم مجهور الهوية جاء . . ودخل القرية حافى القدمين وملفوف الرأس . . مفتوح العينين ، وقتها كانت عيون أهلها مغمضة وأجساد رجالهم ملقاة فوق الأذان الدافئة وبين أذرع

لسانهم المعطاءة . . إلا من نفر قليل كانوا فى انتظارهم . إنهم خفر القرية .

« السبعاوى . . دخل مع بعض رجاله دون مقاومة ليلا . . ولأنه قتل خفر القرية القبلية . . وفى الليلة التالية باتوا من رجاله .

« وظل السبعاوى غامض القدم والمقام حتى صار له منزلا كبيراً ! . هذا ما قاله العمدة » .

« عرفوه بفعله ورسموه بغير رسمه وألصقوا البسملة باسمه . إذا ما احترقت غلة . . كان هو ، إذا ماتت جاموسة فبسببه وإذا مرض أحدهم فلأنه رفض أوامره .

. . يموت الجد ليرث الأب ، يموت الأب . . ويرث الكل أن السبعاوى « عادة » من كل حصاد الأرض . . ويلقون بها فى الليل ، إذا ما حاول أحدهم رؤية ما رمى . . مات أو هو يقتل . . » ، ويختفى السر مع جثة الفضولى الأبله . . حتى قالها أبو العينين سراً وجهراً ، وحتى الآن لم يمت .

. . ولما خرج أبو العينين من المجلس سألوه . .

« ماذا فعلوا بك ؟ »

. . ورد مبتسما ولم يصمت . . قال « أنا سألت سؤالا واحدا » .

. . « وسألت فعلا » ؟ .

.. « قلت إيه » .

.. أبو العينين « قلت طب ليه بقت عادة .. أنا عايز أشوف السبعاوى » .

« . الرعب ألبس سحنتهم الصفوة . . حتى نطق أقلهم خوفا صحيح ما من واحد فينا رآه ، يعنى إيه ؟ !

.. أبو العينين .. « يعنى لازم نشوفوا أو نموت يارجالة »

.. « طلب معقول » . . واحد .

. . « قول طلب مخبول » . . آخر .

.. أبو العينين .. اسمعوا أنا رايح والى مش خايف يتبعنى » .

.. وإلى بيت السبعاوى ذهب .. ومن خلفه بعض من أهله ومن خلفهم القرية ، وعلى البعد كانت أهالى القرية . . إلا رجالات المجالس وكبار القوم فقد شغلتهم فكرة « ترى ماذا . . . عندما يتقابلا ؟ » إلا كبيرهم فقد كان يعرف الحقيقة فلاذ فى صمت جليل » .

.. ودخل أبو العينين ، حطم النافذة ، هشم المدخل ،

تشققت الحوائط وكانت الغرف عشرة .. دخلها جميعاً واحدة تلو الأخرى حتى كانت الأخيرة وفوق كومة « تبن » « إنه هيكل عظـمى » .

« إنه هو » .

« أكيد » .

- « السبعاوى ميت يارجالة » ..

.. زغاريد .. صياح .. صراخ .. فرحة رقص .. إبتهالات .. آيات قرآنية .. غناء .. وفى وُسط الموجة خرج صوت ماكر . . « لكن فين كانت بتروح العادة ؟

نظروا بعضهم بعضاً .. لا جواب . .

خرج نفس الصوت « فين شيخ الخفر يا رجالة .. فين العمدة .. وشيخ البلد .. فين .. فين الجماعه كلها » .

.. قرروا مقابلتهم فى بيتهم الكبير .. تقدمهم أبو العينين .

.. ظلام القرية .. غير كل ظلام .

لا يمكن تشبيهه بالألوان ، ولا خطة قلم على صفحه بكلام ، ولا نعم الناى مع الأرغول مع صوت الريح فى قلب الصحراء ..

يوفى بالعرض المطلوب . .

. . ظلام القرية . . محسوس . . بالأنف والعينين وبالكفين ينطق بصمت موجع اللسان .

. . والكل يقول . . الكل يقول . . أن الذئب تحميه ذئاب .

. . ومقولة لعائد حالا من أرض الأدغال . . أن الذئب يخاف الكلب ! .

— طوبى لمن يذكر أهله وناسه . .

— لوحة المدخل : هل رأيت اللوحة المسماة : ارتفاع المسيح ، للمصور الفلنكى « ب.ب. روبنز » حسنا ، إن لم تكن قد رأيتها حريص أنا على وصفها لك وبعثها من هناك ، من مذبح « كاتدرائية انتويرب » وذلك فى كلمات قليلة . . المسيح المصلوب قريبا فى وسط الصورة ، هادىء ، يرمى نظره إلى حوارييه ، أما الآخرون فما زال يملأهم أمل فى بعث جديد . يعشهم الفنان فى خطوط منحنية ناضجة بالحياة . . بل بالأمل وكأنها لوحة زفاف .

— المكان . . قصر بعيد يقع فى جانب من ضواحى القاهرة

وكالعادة يحيط به عدد من « المشيش » أو قل منازل خدم هذا القصر . . وما أكثرهم . . أما صاحب الحكاية فيقطن فى ركن بعيد داخل القصر ذاته . . بالضبط . . بجوار اسطبل الخيول حيث التبن مرقدة داخل قبو رطب مظلم إلا من لمبة جاز « صاروخ » مدلاة من منتصف سقف المكان .

. . الزمان . . بالضبط لا أدرى ، لكنه من المؤكد منذ فترة بعيدة .

ـ البداية . . إذا مررت بجوار الجانب الشرقى من القصر بمصر الجديدة فى ليلة الخامس من يوليو . . سوف ترى الليلة الختامية للاحتفالات الدينية . . هل هى ليلة وفاة أم ميلاد الشيخ أبو زيد .

. . الشيخ أبو زيد . . ماكان بشيخ ، لقب الشيخ ، ناله بعد مماته . . كل ما يعرفه عن الرب إذا ما سأله صغيره العفريت . . « هو الأكبر فوق كل كبير » . معاً يقضيان لحظات الغروب وهما يحتسيان الشاى الثقيل ، والأم المشغولة بفراخها دوماً تلعنها بعينيها الذابلتين ، فرحة بطفلها يناطح أبوه . . مرة بضربة رأس ومرة بسؤال .

. . أما فى حياته فقد لقبوه بأبو زيد .

كان صاحبنا ذات مرة محتفلا بالمولد الحسينى بالمشاركة فى جلسة مؤلمة مع وخزات إبرة طويلة يغمسها الرجل ذى الرأس الكبير فى صبغة خضراء ويرسم بها فوق الصدر العار . . بالضبط بجوار جدار المسجد .

الرجل يسأله « تحب أرسم لك أبو زيد » صاحبنا يضحك ببلاهة ، الآن يسهر بقامته القصيرة ونحافته الملحوظة ، عار الصدر . . راسماً أبو زيد الهلالى سلامه ممتطيا حصانه ، شاهراً سيفه فوق رأسه . . وبقى « أبو زيد » لقبه حتى أضافوا إليه ، هم أنفسهم . . بالشيخ . . « الشيخ أبو زيد » .

— أبو زيد ذات نفسه . . أسمر ، مشقوق جلد قفاه أميز ما فى خلقته ، راحتيه وقدميه . . أكبر من جسده الضئيل ، نابت الذقن دوماً ، حليق الرأس ، ذو شارب كث مترب . . أما عيناه فسوداوين بلون سواد الليل .

الحادث لحظة بلحظة . . الفراخ تلهو بغير اكتراث ، ديك هناك يدغدغ أنثاه ، آخر ينقر فى الأرض المبتلة ، بيضة هناك أخفتها الدجاجة الداهية ، الوحيد الراصد لحركاتها كان الولد

العفريت ! ، جرى بها إلى أمه ، كانت مشغولة عنه بتطهير حصان طلبه « البك » الصغير حالا . . « أنا لقيت بيضة » .

لأم تذكرت حالا ما نسيته ، جرت خارج الاسطبل ، طفلها جرى خلفها . . « البيضة سخنه يا أمى » . . عادت . أحكمت السرج فى وضعه ، نظرة أخيرة إلى « الحدوة » لتتأكد من سلامتها فإذا بها ترتطم بالبيضة أو بذراع طفلها الممدودة لتسقط البيضة وينسكب زلالها وصفارها ممزوجا بالطين .

بكاء الطفل شديد . . يرتمى إلى الأرض ، يأخذ من الطين ويمسح بها وجهه ، يبصق إلى الأرض ، يلعن أم جدود أمه ! ، تبتسم الأم ، تحمله ، ترميه لى كتفها . . لم يقتنع . . « أجرى شوف غيرها » .

. . صياح بالخارج « يا مصيبتى البك الصغير وصل »

. . صغيرها يتشبث أكثر بكتف أمه .

. . هرج ومرج . . البك الصغير مع رفقائه يرمون الأرض والسماء بطلقات من الرصاص « الوش » .

. . صاحت الأم « الحصان جهز » أما هو فقد انشغل عنها بعبوة جديدة لبندقيته . .

. . طفلها العفريت لمح بيضة هناك . . . « البك » لاحظ العصفورة الخبيثه تختبيء ، تشارك الدجاجات المفزوعة الهرب .

. . الطفل إلى البيضة والبك الصغير ببندقيته إلى العصفورة .

« البك » ضغط بسبابته ورش الأرض بالموت . كان الطفل في مكان الموت .

الأم تصرخ ، تولول . . ترى بالطين نحو البك ، تجرى إلى طفلها الصامت وقد صبغه الدم بلونه .

الأب يسرع الخطى ، يرى المشهد ، لا يمسك بالبندقية ولا زال بعد الدخان الرمادى يرى بنفسه من فوهة البندقية لا يبتعد بأكثر من خطوة واحدة ، البك ذاب فى رعبه .

لحظة وأصبح البك مصبوغاً بالأحمر . . بلون الدم . .

. . أما الآن فقد جرى الأب إلى طفله .

— بعد الحادث بدقائق .. كل شيء مر سريعاً ، ما من سامع لما حدث إلا ويذهل .

« أبهذه السرعة تحدث الأمور الهامة فى حياتنا .

. . وماذا بعد ؟ . . لا أفهم هذا اليوم . . وما قالوه عنه .

. . ولا بنفسه الفرحة بنصرها وإن عذبوه ثم قتلوه . . أسياده . ملاك القصر .

. . ولا بنظرة أهله الحائرة إلى جسده العار ، المعذب .

. . ولا بايقساة يرمونه بالعذاب ، وأى عذاب وقد التفت الساق بالساق وإلى ربك يومئذ كان المساق » .

— لوحة الختام . .

أما وإن لم تكن قد رأيت لوحة (نزول المسيح) لنفس المصور السابق .

ها هى . .

لقد صور روبنز مشهد النزول بطريقة درامية مثيرة تجعلك تنظر مباشرة إلى قلب الصورة ، إلى المسيح لحظة هبوطه عن الصليب بين ذراعى القديس يوحنا وعيون الحواريين ولهفتهم .

. . سقط بينهم فى هدوء . . أما هم . . هؤلاء المحيطون بجسده المنتهى فقد كانوا أقوياء . كل يعطى بشىء من نفسه حتى يلفون الجسد البارد ، أما عيونهم المحدقة إليه والمفتوحة بتحد كحد السيف فهى أول ما يلفت نظرك ، ولعله إلهام فى الأمر . . أمر عيونهم هذه ! .

.. المشهـــــد

أنفاس متراصة مهمومه ، إيماءات مرتعشة لرؤوسهم المنحنية .
وأصابع ممدودة بإبهام ، بجوار أحذيتهم ، ينظر إليهم بعينين
تائهتين ، الندرات لشخص ما ملقى إلى الأرض ، إنه فى العقد
الخامس من العمر ، حالا ضربته سيارة ، رقبته منثنية إلى كتفه
الوجه مزقته خيوط من الدم الأحمر .. عيناه غائرتين ..
جفونه الأربعة متصلبة .. حدقتا عينيه واسعتان .. فى بياضهما
شباك من الأحمر القاتم . . وحذاء يطل من جانبيه جورب ممزق
ولكنه نظيف .. سيارة حمراء اللون طرازها حديث هامدة

بجوار الرجل بعد أن صدمته .

أحد الواقفين دفع بعضهم بهدوء ألقى نظرة لا مبالية إلى المختنق بين أرجلهم ، بمشاعره الثلجية قال . . (حالا سوف يموت) ..

. . ماذا عن المصاب ؟

الإسم : محمد عبد السلام قناوى ، فى العمل ينادونه بـ « محمد أفندى » ، داخل أسوار شقته زوجته تلقبه بـ « سى محمد » ، أما الأصدقاء ورفقاء المقهى يدعونه بـ « محمد الطويل » .

الأوصاف .. طويل القامة والأذنين ، قصير الرقبة ، نحيف ، عظمة أنفه المحدبة تنحنى أمام شاربه الكث الأسود وقد برزت منه شعيرات بيضاء ، كثيراً ما ينظر إليها فى المرآة ثم يطأطىء رأسه ويلوى شفتيه صامتاً كعادته .. زوجته تلمحه تمسح عن شعر رأسه وتمر براحة يده على قفاه وحتى أردافه .

يدخل الوزارة ، رأسه يلقى السلام ، وبها يرد . . ينكب إلى مكتبه متأملا الأوراق الملقاة أمامه وخلفه ومن فوقه وتحته وبين ذراعيه . . دائما مشغولا فى ورقه .

.. أما اليوم فقد شغله أمر هام .. منزله ذو الطابع الأثرى تشققت حوائطه . حوائط غرفة نوم « محمد أفندى » انشققت .

كان يعلم أنه منزل متهالك إلا أنه دوماً يطمئن نفسه قائلا ..

« منزلى بنى بالحجر .. الهرم موجود منذ آلاف السنين » ؟!

.. ماذا بين الرجل وزوجته ؟

اليوم استيقظ مبكراً ، بحركة لا إرادية عبث فى شاربه ، سحب شهيقة بلوية وهو يمسح الارض ببصره ، مد يده داخل العلبة الصغيرة السوداء . أخرج سيجارة ، مزقها نصفين ، أعاد نصف ومزق النصف الآخر ثم صنع منه سيجارة كاملة .. الآن تملأه أحاسيس الثقة المفقودة منذ زمن .

ليلة الأمس كان موفقا مع زوجته ، عندما لكزها فى كتفها ، والتقت عينها لأول مرة فى الصباح أحس بشىء ما .. غامض ، سرمدى .. إلا أنه هائل وعظيم وباهر .. جعله فى كل الأحوال يشعر برجولته التى يتحدى بها كل الصعاب ، أم هل بتجهيز الشاى التام ، تدللت ، حاولت .. إلا أن صورته الزاعق جعلها تنتفض وتتحرك بخفة غريبة . لحظات ، وكانت سحب الدخان خارجة من فتحتى أنفه المربعتين فى تتابع وبمتعة لم يستشعرها منذ زمن .

. . لجأة سرقه مشهد الشق الطولى بالحائط الأمامى ، خيوط شمس الصباح لطمته على عينيه أغمضهما ، أفرجهما مفزوعا . . ماذا لو زاد الشق طولا وعرضاً ؟ ماذا لو انهار الحائط ، حائط غرفة نومه ؟ . . هى عنده أغلى ما يملك وأهم . . فيها يضاجع زوجته ، ووضعت أولاده . . فيها يقرر أخطر الأمور وأهمها . . أما وأن يكون القرار خاص بغرفة النوم . . هذا ما جعله يشرد حتى أنه لم يشعر بكوب الشاى الساخن يلهب كفه ، إنتبه على صوت زوجته مبتسمة تقول . .

بيتنا متأسس يا سى محمد ، لا يمكن يسقط حتى ولو تشققت جـــدرانه .

. . فى صباح يوم الحادث . .

شراء الجريدة عادة كل صباح ، لا يقرؤها بإمعان قد يتصفحها فى المساء قبل النوم ، كثيراً ما يطابق أحداث يومه ، وما يقرأ فى صفحة الحظ ، بالأمس جاء الإنذار الأخير بالطرد ضحك كما لم يضحك من قبل . . الحظ وعده بأموال كثيرة وسعادة وهناء فى محيط العائلة ، زوجته رمت نظرة مندهشة ، لم تتعود منه الضحك ، منذ عشرين سنة لم تسمع صوت قهقهة زوجها الصامت دوماً .

أما أن يضحك فهذا يحق حدث جلل يستحق أن تميل إليه، تدغدغ شعيرات صدره السوداء قائلة ..

« خيراً . . خيراً يا سى محمد ، اللهم اجعله خير »

طال انتظارها ، شعرت برجفة ، حتى الصباح لم تسمع رداً ، جلست خلف المشربية تبحث عن شيء ما .. (ما أقسى أن يعيش الإنسان بلا مأوى ، بلا حوائط حول سريره) تمتمت بها ، ثم استدارت إلى زوجها قائلة ..

« يا سى محمد أنا أشك فى الجواب ، قول لهم أن بيتنا قديم . تحته قبو وفوقه تكعيبة عنب ، وعلى شبابيك مشربيات . . فهمـــــم » .

.. الحادث لحظة بلحظة ..

الرجل نظر حواليه ، عبر الشارع عدواً ، أحدهم سأله عن شيء ما ، لم يرد عليه .. عاد إلى عبوره المسرع . . الآخر صاح بأعلى ما فى حنجرته من قوة ، صرخ حتى احتقنت أذنيه . . . (أنتظر .. إنتظر)

وكان المشهد بعد أن سقط « محمد أفندى » .

ترددت الأقوال . . (الرجل غلطىء) . . (بل السيارة)

السيارة هى المسرعة) (السرعة هى السبب) . . (قدر ومكتوب) .
(بل هى السرعة) .. كادا أن يتشاجرا !

. . سيارة الإسعاف قدمت ، أحدهم اقترب من المصاب ، مسح وجهه بشيء ما فى يده ، ضمد بعض من جراحه ، مال إليه واقترب منه أكثر . . المصاب يتمتم هامساً . . سأله رجـل الإسعاف « ماذا تقول ؟ » .

... « البيت قديم لكن متين » . .

.. « بيته مين يا حاج » ؟ .

.. « بيتنا .. مراتى بتقول متأسس ، ولا يمكن يسقط عايز شوية شغل . . . »

الرجل لم يفهم شيئاً . . أكمل عمله ونقله إلى المستشفى .

. . كانت ترتدى لباس النوم الذى أحضرته معها ضمن الخرق القليلة ليلة هربها من أهلها حتى تنجو بنفسها من الهلاك ، ولا فكاك . . فلا يوجد بعد هتك العرض ذنب . . قالها الأب ولم تعترض الأم يوم أن اعترفت لهما عن سر ما أصابها من إعياء مفاجىء .

. . شعرها الذى لم تعن به لفترة طويلة مضت ، يتهدل فى اضطرابه على كتفيها ربما كان شعرها إلا تاجاً يعتليها ، هائجا حيناً . . مجهولا حيناً . . وفى كل حين إذا رآها حبيبها يقبض عليه بأنامله الطويلة الخشنة الحنونة قائلا (هذا وشاحى) .

. . تغطى عيناها بنظرة تائهة . . هى الخوف فى ذاته ، إستقبلتها عمتها القروية العجوز بعينين بليدتين ، بلا لوم وبلا ترحاب ، فيما بعد أمرتها بالقفز من فوق أجولة الذرة ، وأحمال التبن ، أمرتها بأن تحمل فوق رأسها وبين ذراعيها ما ينوء بحمله رجل فتى مفتول العضلات ، أمرتها بمضغ أعشاب مرة المذاق مرارة الصبر والعلقم . . ولما فعلت . . قالت العجوز (لننتظر . . ولا حول ولا قوة إلا بالله) . .

. . الأصوات الآتية من خارج الدار توشى بالفوضى ، نعيق بوم . . عواء ذئاب . . نواح كلاب . . نقيق ضفادع . . صفير رياح .. وخوار أنفاس الدرميش ، ذلك المعتوه الجلف الحافى القدمين الراقد دوماً خلف نافذة حجرتها ، ما كان يفعل ذلك من قبل .. بالرغم من سباب عمتها العجوز له وهى تلقى بمياه الغسيل كل صباح .

بداخل الدار وعلى مقربة من حجرتها ترقد العجوز .. بأعلى الحائط عش زوج من الحمام الهادىء البال .. قد يفيق من غفوته فى مثل هذه الساعة من الليل فيضرب بجناحيه العش والأرض والسماء ثم يهمد ساكنا بلا حراك .

.. الليلة تجتاحها آلام لا تعرف كنهها ، تنهض ، ترقد ، تستلقى على ظهرها ، تأخذ نفساً عميقاً ، تعبث فى شعرها الفحمى الطويل ، همست إلى نفسها . .

.. (إن شيئاً ما يحدث ؟ هل هذا هو المخاض ؟ !) .

. . (بالرغم من جدار بطنى المشدود ، اللامع ، المنتفخ ، المحدب ، البارز .. حاولت أن أنسى فعلتى !) .

.. (بالرغم من رغبتى فى التقيؤ واشتهائى لابتلاع التين الشوكى بشوكة و .. تضخم صدرى ، وكبر بطنى وثقلها وتحركات شىء ما داخلها . . أوهم نفسى بالنسيان) .

.. (لكن ترى هل حانت ساعة الولادة لأكون زوجة بلا زوج .. أماً بلا أب .. آه . . .

آلام أسفل السرة وأشياء غريبة تحدث ..)

.. إتجهت نحو اللمبة الصاروح المعلقه أعلى مرقدها ، رفعتها ، إقتربت من قطعة المرآة .. حدقت النظر ، شهقت ، وجهها محتقن .. شديد الحمرة إلى حد الزرقة ، تأملت فخذيها ، خط من المخاط المدمم .. إنتفضت .. إستعاذت باقه ، تمتمت ببعض من الآيات وبالدعاء الذى حفظته لهـا الدرويش

(يا رب أعيش مليحه وأموت صحيحة) .. كان ينطقها هكذا (يا لت أعيش مليحه وأموت صحيحة) . . إرتمت إلى الأرض ، بكت بصوت مخنوق ، رغبة ملحة فى أن تصرخ . . ماذا لو علا صوتها . . ؟

(سوف تستيقظ العجوز ، لن ينطق لسانها باللعنات ، سوف تكتفى بنظراتها المتألمة .. المؤلمة .. المعاتبة) .. عادت تحادث المرآة .. (لقد كان يحبنى ، قال لى ذلك .. وصدقته . . هذا كل ما فى الأمر) . . بنظرة هستيرية أشارت إلى المرآة متابعة (هل حضرت يا حبيبى ، تعال .. ها أنا ألتصق بذراعك الأيمن .. يقولون أن العروس دوماً خجلة . . أما أنا .. فأريد أن تقبلنى على مرأى من الجميع ، لن أبادلك قبلة بقبلة ، أرغب فى ذلك ، رغبتى فى أن أكون محل رضاك وهدف سعيك أكبر) .

.. بهدوء رفعت المزلاج ، لم تحرص على رد الباب ثانية ، ما أن اشتم الدرويش رائحتها نهض ، أمرته بالنوم ، بغير تردد ، تكور مكانه ، رأسه بين فخذيه ، ذراعاه تلامس قدميه .

وحدها سارت فى الطريق الطويل الوعر ، وريح الشمال عاتية

تدفعها دفعاً أمامها ، و ترافصها ، وتعبث بجلبابها .. الأشجار على الجانبين تشخصت أفراداً وجماعات ، منها من مال عليها يلثمها ومنها من أشاح بوجهه ، تصفيق يصم الآذان بأنينها . . إرتمت إلى صدر حبيبها ، قالت « إرفع الطرحة ، قبلني قبل أن تدخل غرفة النوم » .

.. تخيرت شجرة الجميز الكبيرة ، اقتربت منها بحذر .

« إنهم يغلقون الباب خلفي .. سيدات كثيرات دخلن .. الرجال والشباب يضربون باب الغرفة بقوة ، ضربات قلبي أسمعها من وريد أذني » .

.. إرتكنت إلى الشجرة ، تقهقرت إلى الأرض ، خرت ساجدة على ركبتيها ، إنثنت قليلا ، إستندت بظهرها على جذع الشجرة ، دفعت ساقيها أمامها ، أفسحت ما بين القدمين ، عضت ذيل جلبابها .

« إنهم يجلسونني عنوة .. ظهري إلى الحائط وأردافي إلى الأرض ، وقدماي أمامي ، منهن من يقبض على ذراعي وصدري إقترب زوجي مضطرباً ، أصواتهم بالخارج زاعقة في انتظار المنديل الأبيض المجلل بدمي الأحمر » .

.. ضوء القمر ويبسها ، مرشدها .. تأكد لها ما كانت تخشاه ، شيء ما يبرز ، يختفى . « حبيبي يخرج عليهم بمنديله ، يرفعه فى وجوههم ، السيدات يزغردن ، الشباب يطلقون الأعيرة النارية . . وأبى يشعل سيجارة جديدة » .

.. خطوات حذرة ، ثلاثة أشباح تقتفى آثارها ، تعرفوا على مكانها ، إنه خفير الدرك يطلق أعيرة نارية فى الهواء ، آخر ممسكا بسيجارة رافعاً هراوته ، يسبقهما الدرويش وقد أزعجه خروجها فى مثل تلك الساعة من الليل .

إنتفض الخفير صاوخاً . . « أأنت . . من أحضرك إلى هنا فى هذه الساعة » .

ما كان منها إلا صرخة طويلة ممدودة حادة ذراعاها العاريتان تبدوان فى الظلام مع وشاح ضوء القمر كأذرع الأخطبوط ، عديدة وقوية .

إقتربوا منها أكثر ، كانت تخرج شيئا ما .

مالوا عليها أكثر .. « أمسك يا شيخ الخفر » قالتها وهى ترمى إليه بوليدها ، وتضربه على قدميه الصغيرتين ، ثم فصلت الحبل السرى .

الخفير خلع معطفه الثقيل .. دثرها ، حبات العرق تمزق بشرتها تمزيقاً .. الدرويش أشعل راكية نار حالا .. ثالثهم ضرب صدره (يا نهار أغبر . . لزماً ولابد أبلغ العمدة ، أبلغ كل الناس بهذه الفعلة السوداء) .

الدرويش إندفع خلفه ، أمسك بتلابيبه ، الآخر ركله بقدمه . . لكمه على صدغه .. ثم تابع العدو والدرويش من خلفه .

.. إبتسمت وهى ترى وليدها يبكى لأول مرة .

نظرت إلى وليدها ..

إبتسمت . . .

حاولت أن تفعل . .

دون أن تسأل نفسها ماذا سيحدث فى الصباح ؟ ! .. ضمته إلى صدرها . . بصوت مخنوق ضعيف غنت أغنية ريفية .. قالت ..

.. (لمـــا قالوا دا ولد ... إتشد حيلى واتســـند
وجابوا لى البيض مقشر ... وعليه سمن البـــلد
نينـــا نام .. نينا نام ... وأنا أدبح لك جوزين حمام)

تعريف بالكاتب

- الإســم ..

السيد عبد العزيز نجم

- تاريخ الميلاد ..

٢٠ مارس سنة ١٩٤٨

- عنوان المسكن ..

٢١ شارع عوض فهمى - سراى القبة - القاهرة .

- المؤهل ..

بكالوريوس طب وجراحة الحيوان عام ١٩٧١ .

ليسانس الآداب (قسم دراسات فلسفيه) عام ١٩٨٠ .

ـ النشر السابق ..

ـ تم مناقشة مجموعتين سابقتين بالإذاعة .. (عام ٧٣ بالبرنامج الثانى ـ وعام ٨٠ ببرنامج مع الأدباء الشبان) .

ـ تم النشر فى المجلات (روزاليوسف ـ الطليعة الأدبية العراقية ـ نادى القصة ـ الجديد ـ ملف ـ الشباب) .

ـ تم النشر بالجرائد (الجمهورية ـ المساء ـ الخليج بدولة الإمارات ـ السياسة الكويتية .

ـ الفوز بمسابقة نادى القصة عام ٧٨ و ١٩٨٠ .

ـ الفوز بمسابقة القصة بالإسكندرية عام ١٩٨٠ .

ـ الفوز بمسابقة الثقافة الجماهيرية عام ٧٦ و ١٩٧٧ .

الناشر : دار الفكر ٥٨ شارع ٢٦ يوليو
تليفون : ٧٧٢٨٢١

رئيس مجلس الإدارة
محمد عمر الشطبي